الذات والآخر في الخطاب الروائي العربي المعاصر (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح : نموذجا .

ميلود شنوفي*

الملخص:

تندرج رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح في إطار موضوع اللقاء الحضاري بين الشمال والجنوب ضمن الأعمال التي نقلت الصراع بين العالمين من المحيط الداخلي للأنا إلى الخارج ، إلى أرض الآخر ، الخصم المتفوق حضاريا وثقافيا إلى درجة الاستبداد.

وهي رواية تميزت عن سابقاتها برؤية فنية وإيديولوجية كانت ثمرة تطور ونضج العلاقة بين العالمين في كرونولوجيا روايات الالتقاء الحضاري العربية ، وهو ما منح نص الموسم خصوصية واضحة في مدى سعة الرؤية وعمق طرح الموضوع.

إن هذا المقال رصد لطبيعة العلاقة بين الذات والآخر في مرحلة تجاوزت الذات فيها مرحلة الانبهار بالآخر إلى مرحلة أكثر وعيا بحقيقة الصراع الفكري والدامي بين العرب والاستعمار الغربي ممثلا في شخوص النساء الإنجليزيات اللواتي تعرّف عليهن مصطفى سعيد بطل الرواية ، وفي أعضاء المحكمة ، لذلك نتحدّث في هذه الرواية عن صراع حضاري عنيف بدل حوار هادئ.

Abstract:

The novel (mawssime el hidjra ila chamel) wich means (season of migration to the north) of tayab saleh under the theme of the cultural encounter between the north and south within the work quoted conflict between the two worlds of inner ring of the ego to the outside, to the land of the other, discount civilized and culturally superior of the degree of tyranny.

They characterized novel from its predecessor's artistic vision and

* كلية اللغات والآداب ، جامعة سعد دحلب بالبليدة .

ideology was the result of the evolution and maturity of the relationship between the two worlds in novel chronology Arab cultural convergence, which grants the text of the “season” clear privacy in the capacity range of vision and depth to broach the subject.

The article is monitoring the nature of the relationship between the self and the other at some point exceeded self where stage fascination of other to stage more aware of the fact ideological conflict and bloody between the Arabs and Weston colonialism represented in the characters of the English women who know they Mustafa said protagonist and members of the court, so we talk in this novel about a violent conflict of civilization instead of a calm dialogue.

كثيرة هي النماذج الروائية العربية التي أثارت موضوع اللّقاء الحضاري بين الشرق والغرب بكلّ ما يمثّله العالمان من تمايز ، وما بينهما من توتّر ، فكشفت بدرجات متفاوتة ، وبتقنيات مختلفة ، مدى هذا التمايز وحدّة هذا التوتّر ، ابتداء بنتاج رحلة الشيخ رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا.

والحقيقة أنّ =تخليص الإبريز في تلخيص باريز+يتجاوز حدود نقل صورة الآخر ، إلى وضع الإنسان العربي في مواجهة نمط الحياة الغربية ، وهو العمل الذي فتح الطريق أمام تجارب روائية أثرت معرفة الإنسان العربي بالآخر ، على غرار ما تتيحه =الأيام+ و=أديب+ لطه حسين ، و=عصفور من الشرق+ لتوفيق الحكيم ، و=الحي اللاتيني+ لسهيل إدريس ، وغيرها من النماذج الروائية التي أثارت موضوع اللّقاء بين الشرق والغرب فكشفت رؤيتين مختلفتين للعالم ، وحاولت أن تكشف سرّ تباينهما وسبب هذا التوتر بينهما.

ضمن هذا الإطار تندرج رواية =موسم الهجرة إلى الشمال+ للطيب صالح ، في سردها لسيرة الراوي ، والشخصية الرئيسية =مصطفى سعيد+ ، فهي نص يعبّر عن إشكالية وعي الذات والآخر في صورة الأوروبي الليبرالي ، وقد قامت الرواية بنقل الصراع بين العالمين من المحيط الإقليمي للأنا إلى أرض الآخر ، الخصم المتفوّق ماديّا وثقافيا إلى درجة الاستبداد ، لكنّها وإن تقاطعت مع نماذج روائية عربية كثيرة في بعض جوانب الصراع التي نقلتها ، إلاّ أنّها تميّزت عن سابقاتها من الروايات برؤية فنية وإيديولوجية ، هي أساسا ثمرة تطوّر ونضج العلاقة

بين العالمين في كرونولوجيا روايات الالتقاء الحضاري العربية ، وهو ما منح نص الرواية خصوصية واضحة في مدى سعة الرؤية وعمق طرح الموضوع.

تتجلّى طبيعة العلاقة بين العالمين ، من خلال علاقة بطل الرواية =مصطفى سعيد+بفتيات لندن اللّواتي تعرّف عليهن=توخيا لإدارة المفتاح الأمثل لعالم الرواية الموقوفة على البطل والمتمحورة حوله+(1) ، أمّا الراوي فالحقيقة أنّ وظيفته الأولى هي استقصاء حكاية الشخصية الرئيسية ، لذلك تركّز الرواية على شخصية =مصطفى سعيد+ وتقدّمها =من الخارج ، ثمّ من الداخل ، ثمّ ذاتيا+(2).

إنّ =موسم الهجرة+بوصفها عملا تخيليا مشحونا بالقيم ، تقدّم =مصطفى سعيد+بوصفه فكرة تقدّم وجهات نظرها حول وضعيتها الخاصة في مرحلة خاصة هي مرحلة تجاوز الانبهار بالغرب ووعي الذات ومحاولة إثبات الندّية الحضارية مع الآخر ، لذلك فهي=تتموقع في إطار العلاقة بين التاريخ والواقع والمتخيّل+(3) إنّها عمل يعكس=صيرورة عالم يتفكّك ، ويقصي الأهداف عن مواضعها ، فالزمن المتجانس المغلق ، كما المعطى المنجز والساكن ، لا وجود له ، وتنعكس سيرورة التفكّك هذه في العالم الداخلي لبطل... يعيش تمزّقه في عالم يفقد شكله+(4) ، وهي صورة للتداعي السريع والشاق للوهم السائد بإمكانية التساوي بالآخر ، الذي مازال ينظر إلى=الأنا+على أنّه قاصر ومتخلّف ، ولا جدوى من محاولات =تحضيره+ ، لذلك قال أحد أساتذة =مصطفى سعيد+ وهو يؤنّبه: =أنت يا مستر سعيد ، خير مثال على أنّ مهمتنا الحضارية في إفريقيا عديمة الجدوى+(5) ، وهذه ، في الحقيقة ، رؤية تحيل على مرجعية استغلالية تستهدف =تحضير+ الإنسان الإفريقي ليصبح قابلا للامتلاك.

لكنّ ذلك لم يكن شأن =مصطفى سعيد+ الذي اتّخذ الجدّ في العلم وسيلة دعم للندّية الفكرية مع الآخر ، فهو لا يمكن أن يكون عبداً رغم بشرته السوداء ، مع ذلك ، فهو واقع تحت تأثير وهم قوّة الأداة التي يستخدمها لإثبات تفوّقه والأخذ بالثأر ، وهي عقله الذي يبدو تأثيره محدوداً ، إذ يوصله إلى درجة التفوّق الجنسي فقط ، لا الحضاري ، وبدل أن يستغلّ عقله فقط في التمكين له من الوصول إلى أعلى درجات

العلم حتّى =عين أستاذاً محاضراً للاقتصاد في جامعة لندن+(6) فيكشف بعلمه أثر الدمار والتخلّف الذي حلّ بقارته وبقي راسخا في ذهنه من خلال كلامه عن=اقتصاد الاستعمار+ ، =الاستعمار والاحتكار+ ، =الصليب والبارود+ ، =اغتصاب إفريقيا+(7) ، بدل ذلك أسند إلى العقل مهمة البحث عن التفوّق الجنسي وخوض معارك الجسد واللّذة مع ضحايا سحر الأكاذيب ومخزون الأمثلة الذي لا ينفذ =كنت أعيش مع نظريات كينز وتوني بالنهار وباللّيل أواصل الحرب بالقوس والرمح والنشاب+(8).

لا تكشف رواية =الموسم+ عن حقيقة واحدة ، حقيقة النظرة الدونية للآخر إلى الأنا ، بل تكشف حقائق متعدّدة ، أو على الأقل=الوجوه المتباينة المختلفة للحقيقة الواحدة+(9) لذلك فإنّ كشف هذه العلاقة ، الحقيقة ، يعتبر= خطوة كبيرة إلى الأمام في إطار علائق الأنا بالآخر+(10) ، لكنّ نص =الموسم+ ليس مسطّحاً إلى الحدّ الذي يكشف في سفور طبيعة العلاقة بين العالمين ، إنّه نصّ مكثّف ، تغلّفه على الأقل أربع طبقات سردية ، تكشف كلّ طبقة مستوى معيّناً من مستويات تعالق هذه الطبقات ببعضها ، ما ينتج في النهاية تركيباً سردياً موارباً ، تكشف فيه الطبقة الأولى عن تأصّل جيل الاستقلال في وطنه وقومه ، حتى ولو غاب سبع سنوات في انجلترا ، وتكشف الثانية عن انخلاع الجيل الأول الذي اتصل بالحضارة الغربية ، واستلاب شخصيته الحضارية ، وتكشف الثالثة عن العلاقة العرقية بواسطة الحديث عن العلاقات العاطفية ، أمّا الرابعة وهي الطبقة الرمزية في الرواية فتتحدّث عن موقع =مصطفى سعيد+ من المجتمع الإنجليزي ومصيره فيه ، فتكشف لنا عن الحقد التاريخي الكامن في اللاشعور الجمعي لديه(11) ، فكيف تولّد هذا الحقد الذي جعل م . سعيد يتّخذ لنفسه منذ البدء ، موقعا يجعله أحد طرفي صراع قديم منذ كان في الثانية عشرة من عمره ، فهو حينما احتضنته =مسز روبنس+ بعد أن غادر الخرطوم إلى القاهرة لم يستشعر حنان الأم ـ الدور الذي حاولت أن تلعبه السيدة روبنس ـ بل تحرّكت فيه رغبة شهوانية تنمّ عن رفض عدائي للمجتمع الغربي.

إنّ الرواية مهما بدت عملا فرديا هي في النهاية=إنتاج مجتمع معيّن ، ووليد ظرف حضاري محدّد ، يتقاطع في أماكن عديدة مع هذا المحيط ويتفاعل معه+(12) ، والروائي وهو ينتج شخصياته=يبنيها بناء

على تفاعله مع واقعه... ويرمي من وراء ذلك إلى تقديم رؤية للعالم الذي يعيش فيه ، من خلال خلق هذا العالم كما يتصوّره أو يتخيّل أن يراه ، أو كما يراه وفق موقفه منه+(13).

هكذا تنقل رواية =الموسم+رؤية =الطيب صالح+ لطبيعة العلاقة بين الشرق والغرب ، بما يؤكّد قوله:=الفكرة التي كانت في ذهني هي أنّ العلاقة بين العالم العربي والحضارة الأوروبية ، كانت قائمة على الأوهام. سواء من طرفنا أو من طرفهم+(14).

فكيف تبدّى وهم علاقة التماثل بين العالمين في الرواية ؟.

تقدّم الرواية مجموعة من المؤشّرات التي تتحوّل إلى حقائق ، تجسّدها صلة =مصطفى سعيد+ بالآخر ، مكانا ومجتمعا ، وهي صلة سلبية ناتجة في الحقيقة من قوّة إرث الماضي الاستعماري للآخر ، لذلك ، يبدو=الثأر+ لقارة بأكملها مشروع =مصطفى سعيد+ صحيح أنّه جاء لندن غازيا بفحولته ، مع ذلك فإنّ =جين مورس+تموت بطعنة خنجر.

فكيف تولّد هذا الحقد القاتل وهذه الرغبة الجامحة في الثأر لقارة بكاملها من عالم بكامله ؟. الحقيقة أنّ الطيب صالح في موسم الهجرة =يطرح من خلال أزمة الإنسان في بلاده ، أزمة الإنسان المعاصر بكلّ أبعادها ، خاصة إنسان الحضارة الغربية+(15) ، في موقفه وتعامله مع إنسان الجنوب(ممثلا في مصطفى سعيد) الباحث عن ذاته من خلال الاحتكاك بالآخر ، ثم يتطوّر الأمر إلى إثبات الندية الحضارية ثمّ التفوّق ، وكلّ هذا ليس إلاّ سلوكا يعبّر به =مصطفى سعيد+ عن ضيق وتذمّر مما آل إليه الجنوب بفعل الاستعمار ، لذلك تعبّر رغبته الشديدة في الرحيل إلى عالم أرحب من قريته في إحدى ضواحي الخرطوم عن نوع من الانفصال النفسي عن هذا المحيط الذي يحيا فيه ، المتولّد من نوع التربية الاجتماعية السائد في الجنوب =ويتجلّى ذلك الانفصال في ذلك النداء الغامض الذي يشدّه إلى الرحيل+(16) ، يضاف إلى جدار غربته عن أمه ، الذي تكشفه أبسط السلوكات التي يمارسانها إزاء بعضهما والتي تلفّها برودة غير طبيعية بين أم وابنها يتجلّى ذلك في موقفها اللامبالي إزاء كلّ القرارات التي يتّخذها طفل في سنّه ، ولعلّ أبرزها السفر إلى القاهرة.

يصف =مصطفى سعيد+ لحظة وداعه لأمّه بطريقة تؤكّد أنّهما

شخصان جمعت بينهما الصدفة في الطريق ثمّ انصرفا كلّ لشأنه =حين أخبرني ناظر المدرسة بأنّ كلّ شيء أعدّ لسفري للقاهرة ، ذهبت إلى أمي وحدثتها ، نظرت إليّ مرّة أخرى ، تلك النظرة الغريبة ، إفترت شفتاها لحظة كأنّها تريد أن تبتسم ، ثم أطبقتهما ، وعاد وجهها كعهده ، قناعا كثيفا ، بل مجموعة أقنعة+(17) ، وحين أرادت أن تتجاوز هذا الموقف ، لم تفعل أكثر ممّا يؤكّد سمك جدار الغربة بينها وبين طفل يبدو متجاوزا لحدود الضوابط الاجتماعية المفروضة في جنوب متخلّف ويسعى للخروج منه =افعل ما تشاء ، سافر أو ابق ، أنت وشأنك ، إنّها حياتك وأنت حرّ فيها.. كان ذلك وداعا ، لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء ، مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا ، ثمّ سلك كلّ منهما سبيله+(18) ، بعد ذلك تغيب صورة الأم من ذاكرة مصطفى سعيد ، ولن يذكّره بها إلاّ موتها في وقت صار فيه أقرب إلى قمّة مأساته ، فيبكي بكاءء حاراً.

في لندن يتحوّل الطفل العبقري إلى مجرم بإرادته ، إرادة الثأر والحقيقة أنّ =مصطفى سعيد+حمل معه إلى لندن ما يجعله مجرما بامتياز: الأنانية وحب التدمير ، وهما الخاصيتان الضروريتان للمجرم ، ومما يلازم هاتين الخاصيتين ، ويعدّ شرطا ضروريا للتعبير عنهما: فقدان الحب ، أي فقدان التقدير العاطفي للأشياء البشرية(19) ، وبسبب من هذا تنتحر=آن همند+ التي بحثت عن الحب عند رجل لا يعرف من الحب إلاّ جانبه الشبقي ، أو على الأقل ما يحقّق له الهدف منه: الثأر الذي يملأ رأسه ، وحينما وعت خيبتها فيه كتبت له:=مستر سعيد لعنة الله عليك+(20) ، وانتحرت لأنّها اكتشفت أنّها ليست جارية ، وهو ليس مولاها ، وأنّ زمن تلك الحقيقة التاريخية لم يعد فاعلا إلى الدرجة التي تعيد فيها تمثيل دور الجارية ، ولم يكن سبب انتحار =شيلا غرينود+ إلاّ خيبة مماثلة ، وما كان علم =إيزابيلا سيمور+ بأنّها مصابة بالسرطان سببا في موتها ، فيما يبدو ، بقدر ما كان ذلك بسبب خيبة أمل أو وعي بحقيقة ما تقترفه في حقّ زوجها بخيانته. فقد قال أبوها إنّه =لا يستطيع أن يجزم إذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها ، أو لأنّها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها+(21) ، ولم ير مصطفى سعيد في هذه الشهادة إلاّ=القوّة التي تلبس قناع الرحمة+(22) ، وهكذا فإنّ الرواية لا تبوح في سفور عن سبب أو دافع مباشر لارتكاب الجريمة التي توجت مأساته وهي قتل زوجته=ذلك أنّنا نجد أنفسنا أمام مجموعة من الدوافع

الغامضة والمتناقضة+(23) ، وحتى خيانتها له ، لا تبدو سببا مقنعا لقتلها =كنت أعلم أنّها تخونني ، كان البيت يفوح برائحة الخيانة ، وجدت مرّة منديل رجل لم يكن منديلي... ومرّة وجدت علبة سجائر ، ومرّة وجدت قلم حبر+(24). فقتلها وهو لا يكرهها ، بل بالعكس كان يحبها ، لكنّه حب أخطأ طريق التعبير الصحيحة =لم تكن كراهية ، كان حبا عجز أن يعبّر عن نفسه ، أحببتها بطريقة معوجّة+(25) ، لم يكن قتلها بسبب الخيانة ، ولا حتى بسبب الغيرة فيما يبدو ، فما قاله في المحكمة ينفي أن تكون الغيرة سببا =وخطر لي أن أقف وأقول لهم:هذا زور وتلفيق قتلتهما أنا ، أنا صحراء الظمأ. أنا لست عطيلا ، أنا أكذوبة+(26) .

لم يبق من مبرّر للقتل إلاّ الثأر=إنّهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي... جرثومة مرض فتّاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام ، نعم يا سادتي ، إنني جئتكم غازيا في عقر داركم ، قطرة السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ ، أنا لست عطيلا ، كان أكذوبة+(27). عطيل كان أكذوبة لأنّه لم يكن في وضع مصطفى سعيد ، كان في مركز السلطة ، محترما ، مدافعا عن المجتمع الفينيسي ، بالنهاية لم يكن مضطرا إلى تأكيد نفسه. أمّا مصطفى سعيد فقد كان يتجرّع كلّ يوم مرارة حقد شرس ، وذلك ما فرض عليه أن يعيش في انجلترا كلّ شيء =ولايعنيني منه إلاّ ما يملأ فراشي كلّ ليلة+وهذا الحجر على إمكانياته كفيل بأن يدفعه إلى الإجرام(28) ، وهكذا لم تعد المرأة الغربية عنده غرضا جنسيا محدّدا ومعلنا ، صارت ميدانا لحربه التي جاء لندن لأجلها=أنا الغازي الذي جاء من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيا+(29) ، ومع أنّ كلّ علاقاته بفتيات لندن ، وحتى علاقته بأمه وبزوجته السودانية ، لا يمكن وصفها إلاّ بأنّها معقدة ، إلاّ أنّ علاقته مع =جين مورس+ =هي التي ترمز إلى ذلك الصدام الكلّي والتام بين الحضارتين ضمن إطار غربي+(30) ، لذلك كان مصطفى سعيد يقول : =كنت أنا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك+. يضيء مثل هذا الكلام وعي مصطفى سعيد بحقيقته ، وحقيقة المجتمع الغربي ، إلى حدّ اللامبالاة حتى حين يتعلّق الأمر بمصيره في المحكمة =جلست أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدثون عني ، كأنّهم يتحدّثون عن شخص لا يهمّني أمره.. كنت هامدا مثل كومة رماد+(31) .

مع ذلك فإنّنا نقرأ في هذا التصرّف إدانة لتعقيد المجتمع الرأسمالي واضطرابه ، لذلك اعتقد مصطفى سعيد =أنّ علاقات الإنتاج السائدة في

هذا المجتمع هي التي تصوغ مأساته ومأساة الكثيرين+(32) ، وقد جاء لندن باحثا عن الثأر والانتقام ، وسيلته في ذلك فحولته وعقله العجيب القادر على صناعة الكذب والتلفيق ، لذلك حينما اجتمع لديه مجتمع غربي مصغّر=وبعد المحاضرة التفّوا حولي ، موظّفون عملوا في الشرق ، نساء طاعنات في السّن مات أزواجهن في مصر والعراق والسودان ورجال حاربوا مع كيتشنز واللينبي ، ومستشرقون ، وموظّفون في وزارة المستعمرات ، وموظّفون في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية+(33) ، رأى أنّ هؤلاء هم من يطالبهم بثأره التاريخي ، فانتقم منهم وضحك عليهم:=قلت لهم إنّ عمر الخيّام لا يساوى شيئا إلى جانب أبي نواس ، وقرأت لهم من شعر أبي نواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ، زاعما لهم أنّ تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بها في العصر العباسي ، وقلت..إنّ أبا نواس كان متصوّفا... وأنّ توقه إلى الخمر في شعره كان في الواقع توقا إلى الفناء في ذات الله ، كلام ملفّق لا أساس له من الصحة...كنت ملهما أحسّ بالأكاذيب تتدفّق على لساني كأنّها معان سامية ، كنت أحسّ بالنشوة+(34).

يعبّر هذا السلوك الكاذب ، الملتوي ، المعقّد لـ =مصطفى سعيد+ولضحاياه أيضا ، بصدق عن انفصال في الوعي ، أو ما يسميه هيغل =مصيبة الوعي+ أو فقدان البراءة البدائية ، وهكذا يحدث انقسام عميق للوعي الإنساني يتوزّع من تلقاء نفسه إلى نزعات تتناقض بشدة (35) ، فتفرز الموت والمأساة =إنّ الكذب هو وليد العداوة بين الناس... وسيادة الكذب يمكن أن تردّ إلى العداوة بينهم ، فكلّما كان الفرد قريبا من الآخر كلّما تحرّج من أن يكذب عليه+(36) ، مع ذلك يكذب مصطفى سعيد على المباشر ، لأنّ بعده عن الآخرين نفسي أكثر مما هو مكاني ، وهو بذلك يهدف إلى بناء صورة مزيّفة عن الذات للتمكّن من تحقيق مشروع تضليل الآخر والضحك عليه والانتقام منه .

يتلخّص حقد =مصطفى سعيد+ على الآخر في تصميمه على ردّ الأذى بأذى آخر ، الأذى الجماعي ، الأذى التاريخي ، قبل الأذى الشخصي(37) ، لذلك تنتحر الفتيات الثلاث ، ويكون =مصطفى سعيد+ سببا في ذلك ، لكنّه سبب غير مباشر فهو لم يفعل أكثر من تحريك =كوامن الداء حتى استفحل وقتل+هذا الأذى الجماعي وهو التدمير

الذاتي ، هو ما سعى إليه غاز ، سلاحه الفتّاك عقل عجيب وفحولة لا يملّ صاحبها من الطراد ، وقد تجمّع لديه هذا الحقد من ذاكرة حادة لشتات أحداث تاريخية ، وهو حين تبدأ المحاكمة يشعر بتفوّقه ، وبنجاحه في الوصول إلى هدفه ، لقد شعروا بوجوده ، وربما بخطورته ، فاجتمعوا للبتّ في أمره=...وأنا أحسّ اتجاههم بنوع من التفوّق فالاحتفال مقام أصلا بسببي ، وأنا فوق كلّ شيء مستعمر ، إنني الدخيل الذي يجب أن يبتّ في أمره+(38).

إنّ =مصطفى سعيد+باحث عن الثأر والانتقام لكن ليس بالقتل ، فعلاقته بالآخر ، بـ=جين مورس+ ممثلا لهذا الآخر ، لا تتجاوز ما قاله من أنّه رآها ، فظلّ يطاردها ثلاث سنوات ، ولم تكن به إزاءها شهوة للقتل ، بل للجنس ، لأنّها كانت= تتفجّر حياة وصحة وإغراء+(39) ، مع ذلك يبدو أنّها هي التي كانت بها شهوة للموت ، وهو يقرّ بذلك =غرفة نومي ينبوع حزن ، جرثوم مرض فتّاك ، العدوى أصابتهن منذ ألف عام ، لكنّني هيّجت كوامن الداء ، حتى استفحل وقتل +(40) لكنّه يعلّل بعد ذلك ، ما حدث بأنّه جزء يجب أن يردّ للآخر من مجموع جرائمه التي اقترفها عبر التاريخ =إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ، وقعقعة سنابك خيل الليبي وهي تطأ أرض القدس ، البواخر مخرت عرض النيل أوّل مرّة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود ، وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم+(41) ، وهو يتذكّر جيّدا ما كانت تقوله =يزابيلا سيمور+:=الحياة مليئة بالألم لكن علينا أن نتفاءل ، ونواجه الحياة بشجاعة+(42) ، وهذا اعتراف ضمني بمدى صعوبة وتعقيد الحياة في المجتمع الغربي ، المبني على الاستغلال الذي ولّد في نفس =مصطفى سعيد+ حقدا انتقل لأجل محاربته إلى لندن وكان يقول =ولكن إلى أن يرث المستضعفون الأرض ، وتسرّح الجيوش ويرعى الحمل آمنا بجوار الذئب ، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر ، إلى أن يأتي زمان السعادة والحب هذا ، سأظلّ أنا أعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية ، وحين أصل لاهثا قمة الجبل ، وأغرس البيرق ، ثمّ ألتقط أنفاسي وأستجم ، تلك يا سيدتي نشوة أعظم من الحب ، ومن السعادة+(43).

إنّ اصطدام الخلفية الاجتماعية لـ=مصطفى سعيد+ بواقع المجتمع الغربي ، لا تعكسه فقط علاقاته الصدامية بفتيات لندن ، بل يتجاوز ذلك

إلى إثارة الخلاف الناتج عن الشكّ في سلامة قيم المجتمع بين المؤسسات الرسمية في هذا المجتمع حين ينظر طرف إلى =م. سعيد+ على أنّه متخلّف لم يستوعب حضارة الغرب ، بل مجرم =تسبّب في انتحار فتاتين ، وحطّم امرأة متزوجة ، وقتل زوجته رجل أناني+(44) ، ويصرّ الطرف الآخر على أنّه إنسان نبيل ، والذنب ذنب الحضارة الغربية التي حطّمت قلبه ، أمّا ضحاياه فقد متن بسبب جرثوم مرض عضال أصابهن منذ ألف عام =روى لهم كيف أني عيّنت محاضرا للاقتصاد في جامعة لندن وأنا في الرابعة والعشرين... مصطفى سعيد... إنسان نبيل استوعب عقله حضارة الغرب ، لكنّها حطمت قلبه... لكن بروفيسور =فستركين+ حوّل المحاكمة إلى صراع بين عالمين ، كنت أنا إحدى ضحاياه+(45).

والحقيقة أنّ رواية =الموسم+لا تطرح مسألة الاختلاف ، بل التناقض لأنّ=الاختلاف قبول بالتنوّع لأنّ فيه إثراء للحياة ، والتناقض حدّ صراعي من أجل اختلاف على قاعدة العدالة+(46) ، هذا التناقض بين العالمين الشمالي والجنوبي يظهر في طبيعة السلوك الملتوي المعقد الذي يعبّر به الآخر عن نفسه ، ويعبّر به مصطفى سعيد أيضا بوصفه متشبّعا بحضارة الآخر وبوصفه مدركا جدواه في الوصول إلى ما جاء لندن من أجله ، في مقابل الصراحة غير المتناهية التي يعبّر بها الجنوبيون - ممثّلين بأهل القرية السودانية - عن أنفسهم بسبب أنّهم نتاج نمط الإنتاج الإقطاعي ، فهم قد تأثّروا =ببساطة نمط الحياة وبطء إيقاعها في المجتمعات الإقطاعية ، مما أدّى إلى اتسام طرق التفكير بالثبات ، وغلبة الجمود والتحجّر على العادات الاجتماعية والقيم الأخلاقية+(47) ، في مقابل حركية والتواء التفكير والعلاقات الإنسانية في المجتمع الرأسمالي مجسّدا في شخوص الفتيات اللندنيات اللواتي تعرّف عليهن مصطفى سعيد. وعليه فإنّ سلوكات مصطفى سعيد في لندن تمثّل قمّة نمو النزعة الفردية =في مجال الأخلاق والسلوك الاجتماعي+(48) .

=مصطفى سعيد+ صعيد المجابهة بين الطرفين يستخدم نص الموسم لغة مجازية =كسبيل لتصعيد تأثر المجالات الثقافية العديدة التي نجدها في هذه الرواية+(49) ، وهكذا نجد أنّ =حوادث القتل والافتتان بالنساء والجنس دون حب ، يتمّ تصويرها كتصرّفات رمزية تعبّر عن التوتّرات الثقافية عن طريق صور العنف والاختراق والقوس والسهم ،

وصعود قمّة الجبل+(50) ، لذلك فإنّ ما يميز هذه الرواية يتحدّد =بالنظر إلى اللّغة الروائية من حيث قدرتها على رفع ما تحكيه إلى لغة توحي بأكثر من الحكاية ، وبأبعد من مكانها ومرجعها ، أو بأبعد من الحادثة وشخوصها الفاعلين+(51) ، لذلك فإنّ وصف العلاقة الجنسية بين مصطفى سعيد والنساء الإنجليزيات يتجاوز اعتبارها =جزءا من التنوّع الذي يشكّل الحياة +(52)ولا يجعل منه وسيلة هدفها اجتذاب القارئ ، ومع كلّ ما قيل عن موسم الهجرة في تناولها لمسألة الجنس من درجة الابتذال التي بدت عليها ، إلاّ أنّ من يقرأ الرواية بعين الهدف من توظيف المقاطع الجنسية لا يوافق أبدا على تناولها لموضوع الجنس فقط+من زاوية ما تضمه من مسائل جنسية =حية+(53) ، وما قيل عن الرواية من أنّ من قرأها لم يتذكّر منها إلاّ مقاطعها الخاصة بالجسد ، ليس إلاّ وجها أو مظهرا من مظاهر صعوبة التفريق =بين الدرجة التي يتحوّل عبرها التناول الجنسي إلى إقحام لمجرد اجتذاب قارئ معين ، والدرجة التي يظلّ عبرها هذا التناول واحدا من العوالم الموجودة موضوعيا في حياة الإنسان+(54).

يصبح الجنس عند=مصطفى سعيد+ محاولة ، بل وسيلة لتأكيد الذات من خلال السيادة على الجنس الآخر التي يستشعرها في العمل الجنسي =وحين أصل لاهثا قمة الجبل ، وأغرس البريق ، ثم ألتقط أنفاسي وأستجم ، تلك يا سيدتي نشوة أعظم عندي من الحب والسعادة ، ولهذا فأنا لا أنوي بك شرا إلاّ بقدر ما يكون البحر شريرا ، حينما تتحطّم السفن على صخوره+(55) ، هو مؤمن إذن بشرف وسيلة الثأر في مسعاه ، ولا ذنب له فيما قد يحدث للآخر بعد ذلك ، إنّه يقول =أنا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد+ قال ذلك حين تذكّر فتح العرب للأندلس ، هل هناك وسيلة أخرى ، غير العقل المدبر؟.

تقول القراءة العميقة إنّ =مصطفى سعيد+ كان أهلا للمجد ، لكنّه حرم منه فانقلب على الحضارة التي حطّمت فيه النبل ، فصار جرثوما فتّاكا ، لم يقتل فقط الأوربيين ، بل قتل السودانيين أيضا: حسنة بنت محمود ، والشيخ ود الريس ، وكاد الراوي أن يكون إحدى ضحايا فلسفته ، وما أنجاه من ذلك فيما يبدو ، إلاّ مستواه الثقافي العالي الذي تخلّص به من هواجس مصطفى سعيد فعاد من منتصف الطريق ، في عرض النهر الجارف.

إذا كان =مصطفى سعيد+لا يبحث عن المجد مثلما يقول ، فإنّ محاكمته تكشف حجم عقدة الاستعلاء التي تميّز تعامل الآخر مع الأنا ، هذه العقدة التي ولّدتها سنوات الاستعمار والاستعباد ، لذلك فهي ترسم صورة أشدّ وضوحا عن مدى حقارة الأنا في نظر الآخر حين يتعلّق الأمر بتأويل حقيقة الشهادة العلمية على ضوء الحياة الشخصية للبطل =و مع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبني على الحب لا على الأرقام ؟ أليس صحيحا أنّك أقمت شهرتك بدعوتك الإنسانية في الاقتصاد ؟ بلى+(56). يتعلّق الأمر بتأويل خاطئ لحقيقة ما سعى إليه البطل ، فبناء الاقتصاد على الحب والمساواة والرحمة بالضعفاء يجب أن يكون من خصوصيات المتفوّق ، من الجانب الإنساني على الأقل ، وهو قادر على ذلك لولا هذه العقد تجاه الأنا. أمّا مصطفى سعيد فالأسماء الخمسة التي انتحلها(57) ، لم تكن إلاّ وسيلة في تحقيق مشروعه ، فهو لا يملك غير التخفّي اسميا ، بل يفعل كلّ شيء بما في ذلك الكذب والتلفيق ليمارس سيطرته على خصمه على فراش تحفّه نيران اللّذة والثأر: وحتى ذلك لم يكن سهلا =لبثت أطاردها ثلاثة أعوام.كلّ يوم يزداد وتر القوس توترا+(58). في المحكمة ، الكلّ كان يريد أن يبرّئ مصطفى سعيد ، لحرمانه من نهاية الغزاة الفاتحين ، ولتوفير فرصة أخرى لإذلاله في سجون إنجلترا ، وهم بذلك لا يحافظون عليه بل على الفكرة ، على المجتمع على العالم الذي علّموه لغتهم فقط من أجل أن يقول: نعم.

إنّ الآخر مصرّ على تحطيم الأنا ، بحرق تاريخه والدوس على حاضره بكلّ ما هو ثمين بالنسبة إليه =أشارت إلى زهرية ثمينة من الموجود على الرف تعطيني هذه وتأخذني...أخذت الزهرية وهشّمتها على الأرض وأخذت تدوس على الشظايا بقدميها حتى حولتها إلى فتات... أشارت إلى مخطوط عربي نادر على المنضدة... أخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها ، كأنّها مضغت كبدي.. أخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر متلذّذة إلى النار تلتهمها فانعكست ألسنة النار على وجهها+(59).

الأغراض المتلفة مختارة بعناية ، وهي فقط ما يعادل لحظة يسلم فيها الآخر نفسه بعد أن يجرّد الأنا من ماضيه وحاضره ، ولا مستقبل

لمن ينتهي الآن= وضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لأقبلها ، وفجأة أحسست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذي[60] : إنّها الإهانة ، الإذلال ، الاحتقار.

تفعل=جين مورس+كلّ شيء يمكن أن يحرّك في مصطفى سعيد =شرقيته+وهي لا تفعل ذلك إلاّ لتوريطه في خصومات وعراك ثمّ تبقى تتفرّج عليه وهي تقهقه =يؤسفني أن أقول لك إنّ هذه المرأة إن كانت زوجتك فإنّك متزوج من مومس..كان يحلو لها أن تغازل كلّ من هبّ ودبّ حين نخرج معا+[61] ، هذه امرأة مشبعة بالحقد والثأر ، وما كانت تفعله ليس إلاّ استفزازا له فيقتلها لتتمكّن من الإثبات لهيأة المحكمة مسبقا أنّ هذا الرجل متخلّف وهمجي.

لم تكن مقابلة الأنا للآخر في هذه الرواية على مستوى =الأيديولوجي+ و=الزمني+ فقط ، بل حتى على مستوى =المكان+ يعبّر عن ذلك مصطفى سعيد بإنشائه غرفتين ، واحدة في السودان وهي غرفة مكتب مطابقة تماما لمكتب بحاثة إنجليزية مليء بالكتب والأشياء المفعمة بالذكريات وبكلّ التفاصيل المتحذلقة لمثل هذه الكتب ، ولكنّه مكان للعزلة ، والأخرى في لندن وهي غرفة يمكن اعتبارها محاكاة غريبة وساخرة لأسوأ الأفكار الأوروبية المبالغ فيها بالنسبة لسحر الشرق ، مكان يعجّ بالقرائن القاتلة التي يغمرها الخداع[62] ، وهي مقابلة تنقل رؤية الطيب صالح لطبيعة العلاقة بين الشرق والغرب ، فهو يقول =الفكرة التي كانت في ذهني هي أن العلاقة بين العالم العربي والحضارة الأوروبية ، كانت قائمة على الأوهام ، سواء من طرفنا أو من طرفهم+[63] ، لقد عاش مصطفى سعيد من جراء ذلك غربتين ، غربة في لندن ، وغربة في القرية النائية ، إنّه دخيل مرّتين هناك وهنا. وهو بسبب ذلك لا يرقى إلى مستوى النمطية لمجرّد أنّه يمثّل محصّلة إحصائية لصفات وممارسات مجتمع مختلف عن الآخر ، بل لكونه يحمل في خصائصه =التحديدات النمطية موضوعيا+[64] ، للمصير العام للمجتمع الذي ينتمي إليه ، لذلك يبدو معبّرا بصدق عن حقيقة العلاقة بين عالمين ، ذلك أنّ =نزوع العمل الروائي إلى رسم الشخصية يتضمّن طموحا إلى رسم كلّية المجتمع أي رسم العلاقات الإنسانية والإطار الاجتماعي العام+[65].

تجيب الرواية على أسئلة كثيرة متعلّقة بالهوية ، وبالنظام الأيديولوجي ، والطيب صالح صريح في رفضه القاطع للحضارة الغربية بخيرها وشرّها حين يكون شرط امتلاكها ضياع الأنا في زخم تناقضات المجتمع الغربي ، وهو يعتقد أنّ سبيل امتلاكها هو ما تحويه غرفة م. سعيد =كنوز الملك سليمان حملها الجان إلى هنا+. إنّها الكتب التي لا يكلّفنا تمثّل مضمونها فقدان الهوية أو ارتكاب الجريمة ، لذلك أهدى مصطفى سعيد مذكراته إلى هؤلاء ..=الذين يرون بعين واحدة ويتكلّمون بلسان واحد ويرون الأشياء إمّا سوداء أو بيضاء إمّا شرقية أو غربية+(66).

إنّ اختلال التوازنات ، وسوء التفاهم الذي ولّده تصادم القيم الثقافية وتمازجها هو الإطار العام لهذه الرواية التي تصوّر مأساة إنسان تمثّل حياة المجتمع الغربي ، فقتلته أصالة المجتمع الشرقي ، أو أضاع شرقيته فقتلته حضارة الغرب ، هو في النهاية ضحية تماس عالمين لا يعوزهما التناقض.

الهوامش:

1 - نبيل سليمان ، وعي الذات والعالم ، دراسة في الرواية العربية ط1 ، دار الحوار ، اللاذقية1985 ، ص 109.
2 - سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، لبنان/المغرب 1997 ، ص365
3 - مصطفى المويقن ، تشكّل المكوّنات الروائية ، ط1 ، دار الحوار للطباعة والنشر ، سورية 2001 ، ص94.
4 ــ فيصل دراج ، دلالة العلاقة الروائية ، ط1 ، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر ، قبرص1992 ، ص353.
5 - الطيب صالح ، موسم الهجرة إلى الشمال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر د. ط ، ص 99 .
6 - الرواية ، ص 54 .
7 - نفسه ، ص 131.
8 - نفسه ، ص55.
9 - صلاح صالح ، سرد الآخر ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، لبنان/المغرب 2003 ، ص69.
10 - نفسه ، نفس الصفحة.
11 - ينظر: محي الدين صبحي ، أبطال في الصيرورة ، ط1 ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان 1980.
12 - حسين خمري ، فضاء المتخيّل ، ط1 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر 2002 ، ص41.
13 - سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، لبنان/ المغرب 2002 ، ص141.
14 - مجلة الموقف الأدبي ، عدد تموز/ يوليو/ أيلول 1980 ، ص50 .
15 - شجاع مسلم العاني ، في أدبنا القصصي المعاصر ط1 دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد

1979 ، ص95.
16 - نفسه ، ص96 .
17 - الرواية ، ص 46.
18 - نفسه ، الصفحة نفسها.
19 - شجاع مسلم العاني ، في أدبنا القصصي المعاصر ، مرجع سابق ، ص96 .
20 - الرواية ، ص 53.
21 - نفسه ، ص80.
22 - نفسه ، الصفحة نفسها.
23 - نفسه ، ص96.
24 - الرواية ، ص148.
25 - نفسه ، ص141.
26 - نفسه ، ص54.
27 - نفسه ، ص100.
28 - محي الدين صبحي ، أبطال في الصيرورة ، مرجع سابق ، ص29 .
29 - الرواية ص147.
30 - روجر ألن ، الرواية العربية ، ترجمة حصة ابراهيم المنيف ، المجلس الأعلى للثقافة 1997 ، ص221.
31 - الرواية ، ص 53 - 54 .
32 - شجاع مسلم العاني ، في أدبنا القصصي المعاصر ، مرجع سابق ، ص98 .
33 - الرواية ، ص 135 .
34 - نفسه ، ص134.
35 - شجاع مسلم العاني ، في أدبنا القصصي المعاصر ، مرجع سابق ، ص98.
36 - السيد يسين ، الشخصية العربية ، ط1 ، مكتبة مدبولي ، مصر1993 ، ص81 .
37 - محي الدين صبحي ، أبطال في الصيرورة ، مرجع سابق ، ص13.
38 - الرواية ، ص99 - 100.
39 - محي الدين صبحي ، أبطال في الصيرورة ، مرجع سابق ، ص 12.
40 - الرواية ، ص55.
41 - نفسه ، ص100.
42 - نفسه ، ص60.
43 - نفسه ، الصفحة نفسها.
44 - نفسه ، ص 54 .
45 - نفسه ، الصفحة نفسها.
46 - يمنى العيد ، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميّز الخطاب ، ط1 ، دار الآداب ، بيروت1998 ، ص56.
47 - السيد يسين ، الشخصية العربية ، مرجع سابق ، ص 89 .
48 - نفسه ، ص80.
49 - روجر ألن ، الرواية العربية ، ص 228 .
50 - نفسه ، الصفحة نفسها.
51 - يمنى العيد ، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب ، مرجع سابق ، ص56 .
52 - صلاح صالح ، سرد الآخر ، مرجع سابق ، ص37.
53 - نفسه ، ص38 .
54 - نفسه ، الصفحة نفسها .

55 - الرواية ، ص 60 .
56 - نفسه ، ص56.
57 - حسن ، تشارلز ، أمين ، مصطفى ، رتشارد : أسماء منتحلة للبطل في الرواية ، ص 56 .
58 - الرواية ص 54 .
59 - نفسه ، ص145.
60 - نفسه ، الصفحة نفسها.
61 - نفسه ، ص148 .
62 - ينظر: روجر ألن ، الرواية العربية ، مرجع سابق ، ص 221 .
63 - مجلة الموقف الأدبي ، عدد تموز / أيلول 1983 ، ص50.
64 - فيصل دراج ، دلالة العلاقة الروائية ، مرجع سابق ، ص73 .
65 - نفسه ، ص 73 - 74 .
66 - الرواية ، ص 140.

مصادر البحث:

1 - الطيب صالح ، موسم الهجرة إلى الشمال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر د. ط.

قائمة المراجع:

1 - نبيل سليمان ، وعي الذات والعالم ، دراسة في الرواية العربية ، ط1 ، دار الحوار ، اللاذقية 1985.
2 - سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، لبنان/المغرب 1997.
3 – مصطفى المويقن ، تشكّل المكوّنات الروائية ، ط1 ، دار الحوار للطباعة والنشر ، سورية 2001.
4 - فيصل دراج ، دلالة العلاقة الروائية ، ط1 ، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر ، قبرص1992.
5 - محي الدين صبحي ، أبطال في الصيرورة ، ط1 ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان 1980.
6 - حسين خمري ، فضاء المتخيّل ، ط1 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر 2002.
7 - سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، لبنان/ المغرب 2002.
8 - شجاع مسلم العاني ، في أدبنا القصصي المعاصر ، ط1 دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 1979.
9 - روجر ألن ، الرواية العربية ، ترجمة حصة إبراهيم المنيف ، المجلس الأعلى للثقافة 1997.
10- السيد يسين ، الشخصية العربية ، ط1 ، مكتبة مدبولي ، مصر1993.
11- يمنى العيد ، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميّز الخطاب ، ط1 ، دار الآداب بيروت 1998
12– صلاح صالح ، سرد الآخر ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، لبنان/المغرب 2003.